آياتُ قول الله تعالى للملائكة
دراسة تفسيريّة

The Verses of Allah's Speech to the Angels:
A Exegetical Study

الباحثة: تيسير عطا محسن
أ.م.د آمال خلف عليّ
Researcher: Taysir Atta Mohsen
Dr. Amal Khalaf Ali

العراق / كليّة الإمام الكاظم (عليه السلام) للعلوم الإسلاميّة الجامعة
University: Al-Imam Al-Kadhim College for Islamic Sciences University

mhmdtysyr95@gmail.com
amal.alhaider2017@gmail.com

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي
Turnitin - passed research

مُلَخَّصُ البحث:

تقف الدّراسة الموسومة بـ: (آيات قول الله تعالى للملائكة، دراسة تفسيريّة)، على تفسير آيات قول الله تعالى، بهدف فهم معانيها وبيأنّ مضامينها، ودراسة السّياق القرآنيّ المُحيط بها، دراسة تفسيريّة شرعيّة.

تتألّف الدّراسة من مبحثيْن، تسبقهما المقدّمة، وتعقبهما الخاتمة والتّوصيات. يدرس المبحث الأوّل: القول القرآنيّ، والملائكة في دائرة المفاهيم اللّغويّة والاصطلاحيّة، في حين يدرس المبحث الآخر: آيات قول الله تعالى للملائكة وتفسيرها وبيأنّ دورها ومضمونها، ومنها تُستخلص المعاني والتّعاليم الإيمانيّة العامّة التي يحملها قول الله تعالى.

تستند هذه الدّراسة إلى مناهج عدة، منها: الاستنباطيّ والاستقرائيّ والتّحليليّ؛ لتحليل الآيات واستخلاص المفاهيم والتّعاليم الواردة في آيات القول، بُغية استنباط أهمّ النتائج.

وتسعى الدّراسة إلى كشف أهمّية آيات القول في القرآن الكريم ودورها في التّوجيه والإرشاد لتحقيق فهم أعمق وتطبيق أفضل لتعاليم الإسلام في حياتنا الدّنيويّة.

الكلمات المفتاحيّة: آيات القول، الملائكة، إبليس، المنهج الاستنباطيَ، السّياق القرآنيّ.

Abstract:

The study titled "Verses of Allah's Speech to the Angels: An Exegetical Study" aims to interpret the verses of Allah's speech, understand their meanings, elucidate their content, and examine the Quranic context surrounding them from a legitimate exegetical perspective. The study consists of two main sections preceded by an introduction and followed by a conclusion and recommendations. The first section focuses on Quranic speech and the concept of angels linguistically and terminologically. The second section delves into the verses of Allah's speech to the angels, their interpretation, their roles, and their content. It extracts the general spiritual meanings and teachings conveyed by Allah's speech.

This study employs various methodologies, including inductive, deductive, and analytical approaches, to analyze the verses, extract concepts and teachings contained within the speech, and derive the most significant results. The study aims to highlight the importance of verses of speech in the Quran and their role in guidance and instruction, fostering a deeper understanding and better application of Islamic teachings in our worldly lives. The study has arrived at several conclusions, including the realization that examining the verses of Allah's speech in the Quran contributes to expanding religious knowledge and understanding Islamic beliefs by exploring the content of these verses. This enhances comprehension of the Quranic context, contemplation of divine wisdom, and the lessons that contribute to the purification of souls, refinement of character, and earning the satisfaction of Allah.

Keywords: Verses of speech, angels, Satan, inductive methodology, Quranic context.

المُقدّمة:

الحمد لله ربّ العالمين، نحمده ونستعين به ونستغفره، فأنّه من يهده الله تعالى، فما له من مُضلّ، ونُصلّي ونُسلّم على عبده ونبيّه محمّد صلّى الله عليه وآله، نبيّ الرّحمة والتّقى، وخير من علّم الناس وأفهمهم، وعلى آله الطّيّبين الأخيار، وكلّ من سار على هديه ونهجه إلى يوم الدّين.

وبعـــــد،

فإنّ من نعمة الله سبحانه علينا بوصفنا مسلمين أن أكمل لنا الدّين، وأتمَّ علينا النّعمة، ورضي لنا الإسلام دينًا، قال تعالى:﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[المائدة: ٣]، وختم به جميع الرّسالات، ونسخ به الشّرائع، وجعل كتابه الحكيم مُهيمنًا على ما سبقه من الكتب السّماويّة، وأمر رسوله بتبليغ هذا الدّين، وأن يصدع به حتّى لا يكون للنّاس حجّة بعد الرّسل.

ومن كمال التّشريع الإسلاميّ أنّ الله تبارك وتعالى أنزل كتابه، وهو المصدر الرّئيس لإرشاد المُسلمين وتوجيههم في جميع جوانب حياتهم، بما يحويه من آيات عظيمة وبليغة تحمل في طيّاتها الحكمة، وتكشف عن أسرار الخلق والحياة، وتدعو الانسان للتّفكّر بعظمة الخالق والوجود.

ولفهم القرآن الكريم، لا بدَّ من الوقوف على أحد جوانب مضمونه، ونقصد آيات القول فيه؛ لما تحمله من معان عميقة ودلالات مُضمرة، ما يتطلّب فهمها وتفسيرها عملاً متُعمّقًا ودراسة دقيقة.

أسباب اختيار الموضوع:

١. فهم معاني آيات قول الله تعالى للملائكة وبيان مضامينها.

٢. دراسة السّياق القرآنيّ المحيط بهذه الآيات.

٣. القيام بتحليل تفسيريّ شرعيّ لتلك الآيات.

أهداف الدّراسة:

١. فهم معاني آيات قول الله تعالى للملائكة ومعانيها.

٢. استخلاص التّعاليم الإيمانيّة العامّة المُرتبطة بهذه الآيات.

٣. كشف أهميّة تلك الآيات ودورها في التّوجيه والإرشاد.

أهمية الدّراسة:

١. توسيع المعرفة الدّينيّة وفهم العقيدة الإسلاميّة.

٢. استكشاف السّياق القرآنيّ وتأمّل الحكمة الإلهيّة والعبر المُستخلصة.

٣. تحقيق صلاح النّفوس وتهذيب الأخلاق وكسب رضا الله تعالى.

منهج الدّراسة:

ترتكز الدّراسة على مناهج عدّة تشمل: الاستنباط والاستقراء والتّحليل، وتعتمد التّفاسير القرآنيّة السّابقة والمراجع العلميّة الموثوقة لتحليل الآيات، واستخلاص المفاهيم والتّعاليم الواردة في آيات القول.

الدّراسات السّابقة:

استعنّا بالعديد من الدّراسات السّابقة، لكنّ الدراسة التي أعانتنا كثيرًا، هي:

وصف القول في القرآن الكريم دراسة بلاغيّة في السّياق والمقام، للدّكتور الدّسوقي محمّد أوب غزارة، مجلّة كلّيّة اللغة العربيّة، المنوفيّة، العدد السادس والثلاثون، ٢٠٢١م.

هدفت هذه الدّراسة إلى تتبّع أوصاف القول في القرآن الكريم، وبحثها بالدّرس البلاغيّ في مقاماتها المختلفة، بدءًا من الكشف عن مدلول الصفات من الناحية اللّغويّة، وبيان أثرها في السّياق القريب، فضلًا عن كشف إيحاءاتها البلاغيّة، وكشف السّياق الكلّي للسور الواردة فيها، ومدى ارتباطها بمقاصدها ومعانيها التي تضمّنتها، وعمد الباحث إلى الموازنة بين المقامات عن طريق تتبّع السياق، وكشف أثره في تنوّع الأوصاف التي وُصِفَ بها القول.

وقد استفدنا من هذه الدّراسة، بالاستدلال على آيات القول في القرآن الكريم، وفهم السّياقات الدّلاليّة لها، فضلًا عن الإفادة من الجانب النظريّ للمفاهيم المشروحة.

خطّة الدّراسة:

جاءت هذه الدّراسة في مبحثيّن، تسبقهما المقدّمة، وتعقبهما الخاتمة وثبت في المصادر والمراجع.

المبحث الأوّل، وهو مهاد نظريّ، بعنوان: «**القول القرآنيّ والملائكة في دائرة المفاهيم اللّغويّة والاصطلاحيّة**؛ إذ يُقدّم تعريفًا لمفهومي القول والملائكة، ويقسم على مطلبيْن:

المطلب الأوّل: القول القرآنيّ: لغة واصطلاحًا

المطلب الثّاني: مفهوم الملائكة: لغة واصطلاحًا

يليه المبحث الثاني: وهو بعنوان: «**آيات قول الله تعالى للملائكة**»، الذي ينقسم بدوره على ستّة مطالب رئيسة، وهي:

المطلب الأوّل: القول لخلق الإنسان.

المطلب الثّاني: القول لخلق آدم.

المطلب الثّالث: قول الأمر للملائكة.

المطلب الرّابع: قول العقاب لإبليس اللّعين.

المطلب الخامس: القول بالإمهال والوعيد.

المطلب السّادس: ختام حوار الله تعالى مع إبليس اللّعين.

المبحث الأوّل: القول القرآنيّ، والملائكة في دائرة المفاهيم اللّغويّة الاصطلاحيّة:

النّص القرآنيّ نصّ مُتكامل ومُتناغم، يكمل بعضه بعضًا. وبناء على ذلك، لا يُمكن فهم النّصوص القرآنيّة فهمًا سليمًا إلّا بعد فهمها في كلّيتها، بعد التتّبع والاستقراء لمواطنها في القرآن الكريم، وحمل بعضها على بعض، وتكميل بعضها لبعض؛ لأن نصوص الوحي عبارة عن لَبِنَات متُراصّة مُنسجمة كالعقد المنظوم، إذا فقدت منه حلقة واحدة، انفرط العقد وأنهار البناء وتشوّهت الصّورة، وهذا ما أعطانا بناءً مُتكاملًا.

وقبل البدء بتتبّع آيات قول الله تعالى للملائكة، نقدّم شرحًا للمفاهيم المستعملة في دراستنا.

المطلب الأوّل: القول القرآنيّ لغةً واصطلاحًا

أوّلًا: القول القرآنيّ لغةً

ذهب ابن منظور في تعريفه للقول: « الكلام على التّرتيب، وهو عند المحقّق كلّ لفظ قال به اللّسان، تامًا كان أو ناقصًا»[١]، وأمّا لدى صاحب البصائر، فعرف القول بأنّه: « الكلام، أو كلّ لفظ مذل به اللسان تامًّا كان أو ناقصًا والجمع: أقوال، وجمع الجمع: أقاويل»[٢]، ويختلف القول عن الكلام، وإن فسّره بعض اللّغويّين بالكلام. يقول ابن منظور: «الكلام: القول معروف، وقيل: الكلام ما كان مُكتفيًا بنفسه وهو الجملة»[٣] والقول: ما لم يكن مكتفيًا بنفسه، وهو الجزء من الجملة،

وهذا هو المشهور عند النحويين ، فعندهم الكلام: « هو كلّ لفظ مستقلّ بنفسه مفيد لمعناه، وهو ما يسمّيه النّحويون: الجمل»[٤]، أو هو اللّفظ المفيد فائدة يحسن السّكوت عليها[٥].**ثانيا: القول القرآنيّ اصطلاحًا**

يُشير القول القرآنيّ اصطلاحًا، إلى الأقوال والعبارات والجمل التي وردت في القرآن الكريم، التي أنزلها الله تعالى على رسوله الكريم، محمّد ﷺ، ويُعدّ القول القرآنيّ أحد المصادر الأساس للفقه الإسلاميّ والتّشريع؛ إذ يتمّ الرجوع إليه في كلّ مسألة دينيّة أو شرعيّة أو غيرهما...

القرآن الكريمُ هو اسمٌ لكلامِ اللهِ تعالى وكِتابِه، وهو المنَزَّلُ على عَبدِه ورَسولِه مُحَمَّدٍ ﷺ بواسِطةِ جبرائيل عليه السلام بلسان عَربيٍّ مُبِينٍ، المنقولُ إلينا بالتواتُرِ، المكتوبُ في المُصحَفِ، المتعَبَّدُ بتلاوتِه، المبدوءُ بسُورةِ الفاتحةِ، والمختومُ بسُورةِ النَّاسِ، والمُعجِزُ بأقصَرِ سُوَرِه[٦].

المطلب الثّاني: مفهوم الملائكة: لغة واصطلاحًا

أوّلا: الملائكة لغة

الملائكة جمع، مفرده ملك، وجاء في تعريف الملائكة لغة، أنّ اللّفظ « مشتقّ من (ألك) مهموز الأصل، والميم فيه زائدة، فيكون «ملائكة» على وزن (مفاعلة) وهذا قول جمهور أهل العلم، فلفظ الملائكة أصله من (الألوك) وهو الرسالة، فمعنى لفظ

الملائكة على هذا الاشتقاق: الرسل، وسميت الملائكة على هذا الاسم للرسالة لأنّها رسل الله بينه وأنبيائه، ورسله لتنفيذ أوامره في تدبير الكون»[٧].

هذا ويحمل اللفظ معنى الشدّة والقوّة، إذ يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٨]؛ فهم رسل الله سبحانه ، يرسلهم الله تعالى إلى من شاء من عباده، وما شاء من أمر يدبّرونه، وهم أولو قوّة وشدّة، يُدبِّرون بأمر الله تعالى شؤون الكون، موكلون بالجمادات والحيوانات والنباتات والأرض والسماوات، وهذه الأعمال التي يقومون بها تحتاج إلى قوّة وشدّة.

ثانيًا: الملائكة اصطلاحًا

جاء في تعريف الملائكة اصطلاحًا بأنّهم: «خلقهم الله عزّ وجلّ من نور، مربوبون مسخّرون، عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لا يوصفون بالذّكورة ولا بالأنوثة، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يملّون ولا يتعبون ولا يتناكحون ولا يعلم عددهم إلّا الله»[٩]، وقد عرف بعضُهم الملائكةَ بأنّها: «أجسام نورانيّة، أعطيت قدرة على التّشكّل والظهور بأشكال مختلفة بإذن الله تعالى»[١٠].

المبحث الثّاني: آيات قول الله تعالى للملائكة:

وردت في القرآن الكريم كثير من الآيات التي خاطب بها الله تعالى جلّ شأنه ملائكته في مجال الأمر والانصياع والطّاعة له، وقد حملت هذه الآيات دلالات مختلفة، ومنها الإشارة إلى مكانة الانسان في الكون وجعله خليفة على الأرض، والتّذكير بأوّل إنسان خلقه وهو آدم على نبيّنا وآله وعليه السلام، وأنّ الشيطان رفض السجود له، والتّنبيه إلى عظمة يوم القيامة، وأنّ الله سيبعث الملائكة للناس في ذلك اليوم العظيم، كما تُعطي هذه الآيات صورة واضحة عن العلاقة بين الله تعالى وملائكته، وغير ذلك من الدلالات.

من أمثلة القول الذي جاء من الله عزّ وجلّ للملائكة، ما يأتي:

المطلب الأوّل: القول لخلق الإنسان

إذ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[١١]؛ والخليفة هو الذي ينتج ويترك وراءه خلفًا تلو خلف، ويرى الطباطبائيّ أنّ الآية[١٢]:

أوّلًا: توضح المقصود من خلق الإنسان، وهو الخلافة في الأرض، وتجعل الانسان وكيلًا لله تعالى في الحفاظ على الأرض وتحسينها وتنميتها، وفي ذلك إشارة إلى العلم والحكمة والمعرفة التي أعطاها الله تعالى للإنسان.

ثانيًا: الآية تعطي دلالة على عظمة الانسان وقدرته على السعي والعمل، وتحثّه على بذل الجهد في سبيل تحقيق الأهداف المطلوبة وإنجاز المهام الموكلة إليه.

ثالثًا: الآية توضّح أنّ خلافة الانسان في الأرض ليست خالصة من الأخطاء والزلل، بل قد يخطئ الانسان ويأتي بالمفسدة، ولذلك فأنّه يحتاج إلى توجيهات وإرشادات من الله تعالى ومن الرسل والأنبياء لكي يسير على الطريق الصّحيح.

رابعًا: الآية تدعو الانسان إلى الاهتمام بالأرض والسّعي لتحقيق الرّفاهية والازدهار فيها، من دون أن يؤذي بيئتها ولا يخربها، وبذلك ينعم الانسان بالعيش الرغيد وينعم بالخير.

وتوضّح آيات قول الله تعالى مع الملائكة، بأنّ الله سبحانه وتعالى خلق الانسان في أحسن تقويم، وأنّه نفخ فيه من روحه؛ إذ سألته الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[١٣] بيّن الله عزّ وجلّ لملائكته الكرام عظيم خلقه، وطلاقة قدرته في الخلق والإيجاد من العدم، فأعلمهم بخلق جديد ليس من قبل الخلق الأوّل منهم، أو من الجنّ، بل هو مخلوق متميز عنهم، وبيّن لهم الهدف من خلق هذا المخلوق الجديد أنّ العلم الذى علم الله به آدم على نبيّنا وآله وعليه السلام ميّزه به عن الملائكة.

المطلب الثاني: القول لخلق آدم على نبيّنا وآله وعليه السلام

افتتح المولى حديثه الكريم في سورة الأعراف ببيان خلق آدم على نبيّنا وآله وعليه السلام؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾[١٤] وفي تفسير هذه الآية، يشير الطبريّ إلى أنّ الله سبحانه وتعالى

خلق آدم على نبيّنا وآله وعليه السلام من تراب الأرض، ثمّ صوّره على هيأة الإنسان، وأعطاه الرّوح والحياة، وجعله خليفته في الأرض.

وأضاف الطبريّ أنّ الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم على نبيّنا وآله وعليه السلام، ليكون ذلك دليلًا على أنّ آدم على نبيّنا وآله وعليه السلام هو الخليفة الجديد لله تعالى في الأرض، وهو الذي سيحكمها ويتولّى أمورها، وقد أطاعت الملائكة هذا الأمر وسجدوا لآدم على نبيّنا وآله وعليه السلام، إلّا إبليس الذي أبى السّجود وأصرّ على الكبر والاستكبار، وأعلن أنّه خير من آدم على نبيّنا وآله وعليه السلام، فرفض الله تعالى تمامًا منه هذا التصرّف، وأعلن أنّه من الخاسرين. ويتّضح من تفسير الطبريّ لهذه الآية أنّ الله تعالى هو الخالق والمدبّر للأمور، وأنّه يخلق ما يشاء ويصوره على الصورة التي يريدها، وأنّه يختار من خلقه من يشاء ليكون خليفته ووصيه في الأرض [١٥].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[١٦]، وفي تفسير الآية الكريمة، نقرأ الآتي: « أصل الصلصال تردُّد الصّوت من الشيء اليابس، ومنه قيل صلَّ المسمار، وسمّى الطين الجاف صلصالًا، قال تعالى: من صلصال كالفخار من صلصال من حمإٍ مسنون؛ والصلصلة بقية ماء سمّيت بذلك لحكاية صوت تحرّكه في المزادة. وقيل الصلصال: المنتن من الطين، من قولهم: صلّ اللحم. وقال: والحمأة والحمأ طين أسود منتن، وقال: وقوله من حمأٍ مسنون، قيل: متغير وقوله: لم يَتَسَنَّه، معناه لم يتغيّر والهاء للاستراحة»[١٧].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ﴾[١٨]، والآية تعني «آدم على نبيّنا وآله وعليه السلام؛ لأنّ الله تعالى خلقه من طين؛ فالخلق فعل الشيء على تقدير وترتيب، وكان جعل آدم على نبيّنا وآله وعليه السلام على مقدار ما تقتضيه الحكمة وأصل الخلق التقدير والبشر مأخوذ من البشرة، وهي الجلدة الظّاهرة؛ لأنّ هذا من شأنه، أي سويت خلق هذا البشر وتمّمت أعضاءه وصوّرته أي: اسجدوا له. وقد بيّنا فيما مضى أنّ السجود كان لله تعالى وعبادة له وفيه تفضيلًا لآدم على الملائكة»[١٩].

كما يُلحظ في تفسير الآية تأكيد للملائكة على حتميّة خلقه؛ إذ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً * قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ * قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢٠]، يرى الطبريّ في قوله: «إنّي جاعل في الأرض خليفة»، أنّ الله تعالى يُحدّد مسؤولية الانسان بوصفه خليفة لله تعالى في الأرض؛ أي أنّه مسؤول عن الحفاظ على الخلق وإدارة الأرض[٢١].

أمّا قول الملائكة: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فيعبّر عن مخاوف الملائكة من وجود الانسان في الأرض، بخاصّة أنّه يميل إلى العصيان، والفساد وسفك الدماء.. ليأتي ردُّ الله تعالى، أنّه أعلم من الملائكة.. ما يعني أنّ الانسان خلق بحكمة من الله تعالى، وأنّه يمكنه حمل رسالة إيمان وخلق حسن، وهذا ما يحمله رد الله تعالى إلى الملائكة[٢٢].

المطلب الثّالث: قول الأمر للملائكة

لّما أمر الله تعالى الملائكة بالسّجود لآدم على نبيّنا وآله وعليه السلام ، كان هذا الأمر أيضًا مُوجّهًا إلى إبليس؛ إذ قال الله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[٢٣]؛ وقد تكلّم الفقهاء عن سبب توجّه الأمر بالسّجود لآدم على نبيّنا وآله وعليه السلام إلى إبليس مع أنّه لم يكن من الملائكة، فذكروا أنّ سبب ذلك أنّه كان متشبّهًا بالملائكة في أعمالهم الظّاهرة، «والغرض أنّ الله تعالى لّما أمر الملائكة بالسّجود لآدم على نبيّنا وآله وعليه السلام ، ودخل إبليس في خطابهم؛ لأنّه وأنّ لم يكن من عنصرهم، إلّا أنّه قد تشبّه بهم وتوسّم بأفعالهم، فلهذا دخل في الخطاب لهم، وذمَّ في مخافة الأمر»[٢٤]. وأنّ قال قائل: في الآية إشكال، وهو أمر الله تعالى لما ذكر أمر الملائكة بالسجود، وذكر أنّهم سجدوا إلّا إبليس كان ظاهرها أنّ إبليس منهم؛ والأمر ليس كذلك والجواب: « أنّ إبليس كان مشاركًا لهم في أعمالهم ظاهرًا، فكان توجيه الأمر شاملًا له بحسب الظاهر، ونحو ذلك والذي علينا أن نؤمن به ونعتقده أنّ الأمر بالسجود لآدم كان مُوجّهًا إلى إبليس كما كان موجها إلى الملائكة»[٢٥].

وعن امتثال الملائكة للأمر، قال تعالى:﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[٢٦]، ظاهر الدلالة على سجود الملائكة له من غير استثناء. فجاء بالقول مُؤكّدا على السّجود؛ « اسجدوا « من دون شرط ومن دون توضيح لنوع الخلقة

التي منها خلق آدم وضّح امتثالهم للأمر بقوله:» فسجدوا»، أي (**اسجدوا فسجدوا**)، ولكن لما شرط عليهم السّجود فور الانتهاء من مراحل خلقه موضّحًا أنّه من طين، وهم ما هم عليه من الخلق (من النور)، أكّد امتثالهم للأمر فذكرهم بنوعهم الملائكة، ليُخبرنا أنّه رغم خلقه من طين من حمأ مسنون، إلّا أنّ الملائكة سجدوا عن آخرهم لم يتخلّف منهم ملك، وهم خلق النور، الأمر الذي يمهد للتوبيخ المطلق لإبليس على اعتراضه على جنس خلق آدم على نبيّنا وآله وعليه السلام (٢٧)، وكانه في هذين الموضعين يُعَرِّض بالمشركين؛ « إذ امتثل الملائكة أجمعون، « فما بال قومك يا محمّد ينكرون ويجحدون»؛ حيث استثنى إبليس من الملائكة وليس منهم؛ لأنّه لّما أمر بالسجود معهم فغلبوا عليه في قوله تعالى: «فسجد الملائكة» ، ثمّ استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناء مُتَّصِلًا(٢٨).

ويرى المجلسيّ في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾، أنّ الآية تُظهر طاعة الملائكة المطلقة لله تعالى، وأنّهم بسجودهم يعبّرون عن الاستسلام والانقياد لأوامر الله تعالى(٢٩). ويرى الطّباطبائيّ أنّ المراد من السّجود هو التّعظيم والتّبجيل لمولى العالمين، وأنّ سجود الملائكة كان تعبيرًا عن الاستعداد لأمر الله تعالى وطاعته، وأنّ هذا يُعبّر عن أعظم أنواع التّعبير عن العبوديّة لله تعالى(٣٠).

وقد ذكر الله تعالى امتناع إبليس عن السّجود له، وظهر هذا الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ

﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[٣١] وهو بذلك يدلّ على امتناعه للتأكيد على قبيح فعله إذ امتنع عن تنفيذ أمر الله تعالى استكبارًا وتعاليًا بغير وجه حقّ.

يُشير الطبريّ إلى أنّ الله تعالى أمر الملائكة بالسّجود لآدم على نبيّنا وآله وعليه السلام، ليكون ذلك دليلًا على أنّ آدم هو الخليفة الجديد لله تعالى في الأرض، وهو الذي سيحكمها ويتولّى أمورها، وقد أطاعت الملائكة هذا الأمر وسجدت لآدم على نبيّنا وآله وعليه السلام، إلّا إبليس الذي أبى السّجود وأصرّ على الكفر والاستكبار، وأعلن أنّه خير من آدم على نبيّنا وآله وعليه السلام، فرفض الله تعالى تمامًا منه هذا التّصرّف، وأعلن أنّه من الخاسرين[٣٢]. ويتّضح من تفسير الطبريّ لهذه الآية أنّ الله تعالى هو الخالق والمدبر للأمور، وأنّه يخلق ما يشاء ويُصوّره على الصورة التي يريدها، وأنّه يختار من خلقه من يشاء، ليكون خليفته ووصيه في الأرض.

قال تعالى: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾[٣٣]، وجاء في تفسير الآية: أنّ «..هذا قول من الله سبحانه لإبليس، ومعناه: لِمَ لا تكون مع السّاجدين فتسجد كما سجدوا؟ وإنّما قال سبحانه بنفسه على جهة الإهانة له، كما يقول لأهل النّار: ﴿قَالَ اخْسَئُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، وقال الجبائيّ: إنّما قال سبحانه ذلك على لسان بعض رسله؛ لأنّه لا يصحّ أن يكلّمه الله بلا واسطة في زمان التكليف (قال) أي: قال إبليس مُجيبًا لهذا الكلام (لم أكن لأسجد) أي: ما كنت لأسجد. وقيل: معناه ما كان ينبغي أن أسجد لبشر خلقته من صلصال»[٣٤].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾[٣٥]، هنا من البديهيّ أنّ عبارة (يديَّ) لا تعني الأيدي الحقيقيّة المحسوسة؛ لأنّ البارئ عزّ وجلّ مُنزّه عن أشكال الجسم والتجسيم كافّة، وإنّما «اليد» هنا كناية عن القدرة، ومن الطّبيعيّ أنّ الإنسان يستعمل يديه ليظهر قدرته على إنجاز العمل، وكثيرًا ما تُستعمل اليد بهذا المعنى، ومن دون أيّ شكٍّ فأنّه لا أحد يستطيع أن يدّعي أنّ قدرته ومنزلته أكبر من أن يسجد لله تعالى (أو لآدم بأمر من الله).

والله عزّ وجلّ في كلّ تلك الأسئلة «يعلم حاله ولا يفتقر لجوابه، ولكنّه ساق المعلوم مساق غيره»[٣٦]، لتوبيخ إبليس ولإظهار معاندته وكفره واستكباره وافتخاره بأصله، وازدرائه لأصل آدم على نبيّنا وآله وعليه السلام ومخالفته أمر ربّه، معتقدًا أنّ سجوده سجود الفاضل للمفضول؛ فالاستفهام يؤدّي دورًا بارزًا في كشف خبايا إبليس وهتك ستره أمام بني آدم، إلى جانب أنّه يدعم أسلوب الحوار الذي يتغلغل بدوره في القصّة؛ لكشف ماهيّة إبليس وبيان خفاياه ونواياه أمام البشر، وهنا يأتي دور إبليس لعنه الله في القول، فعلى لسانه قال تعالى:﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾[٣٧]. أراد الشيطان في قوله، إظهار تكبّره وعدم انصياعه لأوامر الله تعالى.

يذكر الطبريّ في تفسيره لهذه الآية أنّ إبليس ادّعى أنّه خيرٌ من آدم، وذلك بسبب أنّه خُلق من النار في حين خُلِقَ آدمُ من طينٍ، وهو ما جعل إبليس يرفض السّجود لآدم. ويُشير الطبريّ إلى أنّ هذه الدّعوى باطلةٌ بما أنّ الفضيلة والكمال لا ينتجان من المادّة التي خلق منها الإنسان، وإنّما ينبعثان من صفاته وأعماله الصّالحة(٣٨).

أمّا القرطبيّ فيشير إلى أنّ المعنى الحقيقيّ للآية هو أنّ الخلقة تختلف بين النّار والطّين؛ فالنّار ترمز إلى الجهل والغضب والنّار الدّنيئة، بينما الطّين ترمز إلى العلم والتّواضع والتّقوى، وهذا ما جعل إبليس يظنّ نفسه خيرًا من آدم، فهو أراد الاعتزاز بمادته، ولم يدرك الأمر الحقيقيّ والصّفات التي يعلو بها الإنسان(٣٩).

يتّضح أنّ المفسّريْن الاثنين اتّفقا على أنّ إدّعاء إبليس بأنّه خيرٌ من آدم باطل، ولكنّهما اختلفا في تفسير السبب الحقيقيّ وراء هذا الإدّعاء.

وقال تعالى على لسان إبليس: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾(٤٠)، تحمل الآية دلالة وهي أنّ إبليس «أنكر الأمر بالسّجدة، «وقال: أأسجد لمن خلقته من طين وقد خلقتني من نار وهي أشرف من الطين»(٤١)، والاستفهام للإنكار. تعكس هذه الآية الكريمة، شخصيّة إبليس، فهو مُتكبّر يعترض على قول الله تعالى وأوامره بالسجود إلى آدم، ويرى الطبريّ أنّ إبليس الذي رفض السجود، يتحدّى أمر الله سبحانه(٤٢).

المطلب الرّابع: قول العقاب لإبليس اللعين

وهنا يصل الحوار إلى مرحلة العقاب الذي تلقّاه إبليس من ربِّه، يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾(٤٣)، والتكبّر هو أخذ الانسان الكبر لنفسه وظهوره به على غيره، وقد جاء في تفسير الآية الكريمة، ما أورده الطباطبائي، إذ يقول:» قوله: « فاخرج إنَّك من الصاغرين « تفسير وتأكيد لقوله: « فاهبط منها «؛ لأنّ الهبوط هو خروج الشيء من مستقره نازلًا، فيدلّ ذلك على أنّ الهبوط المذكور إنَّما كان هبوطًا معنويًا لا نزولًا من مكان جسماني إلى مكان آخر، وتأييدًا لما تقدّم أنّ مرجع الضّمير في قوله: « منها « وقوله: «فيها» هو المنزلة دون السماء أو الجنّة إلّا أن يرجعا إلى المنزلة بوجه والمعنى: قال الله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾، فأنّ هذه المنزلة منزلة التذلّل والانقياد لي فما يُحَقُّ لك أن تتكبّر فيها فاخرج إنّك من الصاغرين أهل الهوان وإنّما أخذ بالصغار ليقابل به التكبّر»(٤٤).

قال تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنة إلى يومِ الدِّين﴾(٤٥)، وهنا «الضّمير في (منها)، قيل عائد إلى (الجنّة)، وقيل إلى (السّماء)، وقيل إلى زمرة الملائكة: أي فأخرج من زمرة الملائكة فإنّك (رجيم) أي مرجوم بالشهب. وقيل معنى رجيم ملعون: أي مطرود لأنّ من يطرد يرجم بالحجارة (وأنّ عليك اللعنة إلى يوم الدين) أي عليك الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه مستمرًا عليك لازمًا لك إلى يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، وجعل يوم الدين غاية للعنة لا يستلزم انقطاعها

في ذلك الوقت؛ لأنّ المراد دوامها من غير انقطاع، وذكر يوم الدين للمبالغة كما في قوله تعالى – ما دامت السماوات والأرض–، أو أنّ المراد أنّه في يوم الدين وما بعده يعذّب بما هو أشدّ من اللعن من أنواع العذاب»[٤٦].

الحوار كلّه يدور في مجرى سريع الوقائع، ما أن نفخ الله جلّ عُلاه، الروح في آدم على نبيّنا وآله وعليه السلام إلّا وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلّا إبليس أبى، فحاوره المولى جلّ شأنه عن علّة امتناعه، في قوله:» فاهبط أي اخرج «، والأمر على حقيقته يقتضي الوجوب والضمير في (منها) عائد إلى الجنّة، ويحتمل أن يكون (للمنزلة) التي هو فيها في الملكوت الأعلى، وقيل من الخلقة التي أنت فيها؛ لأنّه كان يفتخر بخلقته فغير الله خلقته؛ فأسود بعدما كان أبيض، وقبح بعدما كان حسنًا، وأظلم بعدما كان نورانيًّا، وأكّد قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ من الصّاغرين﴾ بـ(أنّ) ليعكس له اعتقاده وينكس عليه ظنّه فقد تكبّر متوهّمًا أنّه أفضل من آدم على نبيّنا وآله وعليه السلام بأفضليّة الجنس الذي منه خلق فقلب له اعتقاده مزريّا إيّاه مؤكّدًا أنّه من الصاغرين الأذلّاء.

وقد ذكر الطباطبائيّ في تفسيره، بأنّ هذه الآية تدلّ على أنّ الله تعالى يحبّ من عباده الطّاعة والانقياد لأوامره وأنّه لا يتهاون مع العصيان والمخالفة، وأنّ الله يُعاقب من يعصيه ويعطي المكافأة للمُطيعين، مُشيرًا إلى أنّ الله تعالى يترك لعباده الحريّة في الاختيار بين الطّاعة والعصيان، ولكنَّه يحذّرهم من العواقب الوخيمة

للعصيان، وأنّه يجب على الانسان أن يحافظ على طاعة الله سبحانه واتباع أوامره ليحظى برضاه ورحمته(٤٧).

المطلب الخامس: القول بالإمهال والوعيد

الوعيد في القرآن هو تحذير من الله تعالى لعباده من العصيان والمعصية، وهو عبارة عن وعيد بالعقاب والنّقمة في الدنيا والآخرة على المعتدين والمخالفين لأوامر الله تعالى وشرائعه.

وقد توعّد الله تعالى الشيطان بأن عاقبه باللّعنة والطرد من رحمته؛ إذ لم يعد إبليس لرشده فيطلب المغفرة والرحمة، ولكنّه استمرّ في غيّه وعناده واستكباره الطاغي؛ فطلب الإمهال حيًّا ليوم البعث يقول تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(٤٨).

يرى الطبريّ أنّ إبليس سيكون من المنظَرين في يوم القيامة؛ أي أنّه سيكون من الّذين ينتظرون الحكم والعقاب من الله تعالى. وبهذا يكون التشّديد في الآية على وعيد الله تعالى لإبليس بالعقاب، وأنّه سيكون محاسبًا في يوم القيامة(٤٩).

وفي ذلك قال ابن جرير الطبريّ: «فإن قال قائل: فإن الله قد قال له إذ سأله الأنظار إلى يوم يبعثون: إنّك من المنظرين في هذا الموضع، فقد أجابه إلى ما سأل؟ قيل له: ليس الأمر كذلك، وإنّما كان مُجيبًا له إلى ما سأل لو كان قال له: إنّك من المنظرين إلى الوقت الذي سألت، أو إلى يوم البعث، أو إلى يوم يبعثون، أو ما أشبه ذلك ممّا يدلّ على إجابته إلى ما سأل من النظرة، فقال: ربّ فأنظرني إلى يوم يبعثون،

قال: فإنّك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم فلم ينظره إلى يوم البعث، ولكن أنظره إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم ينفخ في الصور النفخة الأولى، فصعق من في السّماوات ومن في الأرض، فمات»(٥٠).

والأمر في (أنظِرني) من الأدنى للأعلى، خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى الرجاء، لذا شفعه في سورة الحجر بلفظ الرّبوبيّة:» قال: ربّ فأنظرني» وكانه يستعطف خالقه ليبلغ مراده ويحقّق رجاءه من الإنظار إلى يوم البعث؛ ليتمكّن من تحقيق غرضه المنشود، وإنَّما جعل غاية الإنظار إلى يوم البعث؛ لأنّه لا موت في يوم البعث ولا بعده، وغرضه من تحديد ذلك اليوم أن يكتب له الخلود فلا تقبض روحه، بل يظلُّ ليوم البعث حيًّا تتّصل حياته بما بعد البعث.

قال الشّوكانيّ في تفسير هذه الآية: « إنَّما طلب إبليس الإنظار إلى يوم البعث ليتخلّص من الموت؛ لأنّه إذا أُنظر إلى يوم البعث لم يمت قبل البعث، وعند مجيء البعث لا يموت فحينئذ يتخلّص من الموت، فأُجيب بما يبطل مراده وينقض عليه مقصده وهو الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم، وهو الذي يعلمه الله ولا يعلمه غيره»(٥١).

أمَّا معنى « يوم الوقت المعلوم»، فقد جاء: هو « الوقت الذي تقع فيه النّفخة الأولى ومعنى « المعلوم « أنّه معلوم عند الله معين لا يستقدم ولا يستأخر»(٥٢). قال ابن عبّاس:» أراد به النفخة الأولى أي حين تموت الخلائق، وقيل: الوقت

المعلـوم الذي استأثر الله بعلمه ويجهله إبليس فيموت إبليس ثُمَّ يبعث؛ قـال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[٥٣]».

وروى الطبريّ في تفسيره عن السّدي:«فلم ينظره إلى يوم البعث، ولكن أنظره إلى يوم الوقـت المعلـوم، وهـو يوم ينفخ في الصّور النفخة الأولى، فصعق مـن فـي السـماوات ومـن فـي الأرض فمات»[٥٤].

وعلى هذا لم يحقّق المولى جلَّ جلاله لإبليـس أمنيتـه مـن البقاء إلى يوم البعث، ولكنَّه أنظره إلى الوقـت المعلـوم الـذي تقـع فيـه النّفخة الأولى، وإنّما أُجيب إلى استنظاره مع إفساده العباد وإغوائهم لما في ذلك من ابتلاء العباد، وفي مخالفته من أعظم الثّواب، فحكمه حكم ما خلق في الدّنيا من صنوف الزّخارف، وأنواع المـلاذ والملاهـي، ومـا ركـب فـي الأنفس من الشّهوات؛ ليمتحن بها عباده.

وهكذا، فقد أُعطي الشيطان إمكانيّة البقاء والفعّاليَّة حتّى يتحقّق الاختبار للجميع، ويكون وجوده سببًا لتمحيص المؤمنين الحقيقيّين واختبارهم؛ لأنّ الإنسان يشتدّ عزمه عندما تهاجمه الحوادث ويقوى عوده في مواجهة الأعداء[٥٥]. والاستعارة أولى بالمعنى من الحقيقة؛ إذ تُصوّر الانسان فـي نظـر إبليس بصورة مزرية كالبهيمة يجرّها حيث يريد ممّا يبرز ما كمن في نفس إبليس من حقد وحسد لآدم، ويؤكّد أمر قطعه الوعد بالتّربّص لـه ولذريته، وممّا يؤكّد هـذا المعنـى الـذي يُصـوّر الاتّبـاع والانقيـاد الأعمى ردّ المولى عليه؛ إذ قال تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾[٥٦].

٢٥٠

-يقول تعالى مُحذرًا إبليس ومُتوعّدًا إيّاه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ﴾ أي: «منك، ومن ذرِّيَّتِك، وكفَّار بني آدم (أجمعين) وإنَّما جمعهم في الخطاب؛ لأنّه لا يكون في جهنم إلّا إبليس وحزبه من الشّياطين، وكفّار الإنس، وضلالهم الذين انقادوا له، وتركوا أمر الله سبحانه لأتباعه[٥٧]، ويقول الزمخشريّ: «فأقسم بإغوائك لأقعدن، وإنّما أقسم بالإغواء لأنّه كان تكليفًا، والتّكليف من أحسن أفعال الله سبحانه؛ لكونه تعريضًا لسعادة الأبد فكان جديرًا أن يقسم به»[٥٨].

المطلب السّادس: ختام حوار الله تعالى مع إبليس اللّعين

يُحاور الله عزّ وجلّ إبليس ردًّا عليه؛ إذ يقول تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾[٥٩]، وقد جاء « عن قتادة قال: سمعت الحسن البصري يقرأ هذا الحرف: هذا صراط عَلِيٍّ مستقيم، قلت: ما معناه؟ قال: هذا طريق عليّ بن أبي طالب، ودينه طريق دين مستقيم، فاتّبعوه وتمسّكوا به فأنّه واضح لا عوج فيه»[٦٠]، وهو قول يحمل من القوَّة ما يعلو تأكيد إبليس وقسمه على الإغواء واستعماله حرف (على) لا يعني أنّ طريق الحقّ تعلو على الله عزّ وجلّ، فلا استعلاء لشيء على الله تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، وإنَّما تعني أنّ الحقّ مرجعه إلى الله ينتهي إليه؛ وقد تفضّل الله تعالى على المؤمنين بإرشادهم للصّراط المستقيم، إذ يقول تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[٦١]. هذا هو القضاء الذي أشار سبحانه إليه في الآية السابقة في أمر الإغواء، وذكر أنّه له وحده ليس لغيره فيه صنع ولا نصيب، ومحصّله أنَّ آدم على نبيّنا وآله وعليه السلام وبنيه كلّهم عباده لا كما قال إبليس حيث

قصر عباده على المُخلصين منهم، « إذ قال: إلّا عبادك منهم المخلصين، ولم يجعل سبحانه له عليهم أيّ على العباد سلطانًا حتّى يستقلّ بأمرهم فيغويهم، وإنَّما جعل له السلطان على طائفة منهم، وهم الذين اتّبعوه من الغّاوين وولوه أمرهم وألقوا إليه زمام تدبيرهم، فهؤلاء هم الذين له عليهم سلطان؛ فإذا أمعنت في الآية وجدتها تردّ على إبليس قوله: «(لأغوينهم أجمعين الّا عبادك منهم المخلصين)، من جهتيْن:

إحداها: أنّه حصر عباده في المخلصين منهم ونفى عنهم سلطان نفسه، وعمّم سلطانه على الباقين، والله سبحانه عمم عباده على الجميع وقصر سلطان إبليس على طائفة منهم، وهم الذين اتبعوه من الغاوين، ونفى سلطانه على الباقين.

الثانية: أنّ إبليس لعنه الله ادّعى لنفسه الاستقلال في إغوائهم كما يظهر من قوله:(لأغوينهم) في سياق المخاصمة والتقريع بالانتقام، والله سبحانه يرد عليه بأنّه منه مزعمة باطلة، وإنَّما هو عن قضاء من الله سبحانه وسلطان بتسليطه، وإنَّما ملَّكه إغواء من اتَّبعه وكان غاويًا في نفسه وبسوء اختياره، فلم يأتِ إبليس بشيء من نفسه ولم يفسد أمرًا على ربّه، لا في إغوائه أهل الغواية؛ فإنه بقضاء من الله سبحانه أن يستقرّ لأهل الغواية غيهم بسببه»[٦٢].

ويُشير الطّباطبائيّ في تفسيره لهذه الآية إلى أنّها تنصّ على أنّ الله تعالى هو المالك الحقيقيّ لجميع العباد، ولا يمتلك أي شخص آخر سلطانًا أو سلطة على الآخرين. والمقصود بالسّلطان، هنا، هو القدرة على التحكّم في الآخرين أو تسيير

شؤونهم. وتشير الآية إلى أنّ الوحي والإرشاد يأتيان من الله سبحانه فقط. وإذا أراد الله تعالى أن يهدي شخصًا ما، فإن هذا يكون بإرادته ومشيئته فقط. ويرى أنّ الغاوين المذكورين في الآية هم أولئك الذين يتّبعون الشيطان ويضلّون عن الحقيقة والإرشاد الصحيح (٦٣).

والغاوون هم الممعنون في الضّلال المنغمسون فيه، نظير ذاك الوعيد في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٦٤).

تحمل الآيتان كثيراً من المعاني؛ إذ تؤكّدان أنّ جهنّم هي مصير الشيطان ومن يتّبعه، وأنّها ستكون لهم موعدًا ومصيرًا مأساويًّا في الحياة الآخرة؛ وقد جعل الله سبحانه وعده حقًّا وصدقًا.

وفي تفسير الطّباطبائيّ لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هو أنّ هذه الآية تُنبئ بأنّ جهنم ستمتلئ من الكفّار والمشركين والفسّاق والمنافقين، وأيضًا من الشّياطين والملائكة العصاة، والذين يتّبعون الشيطان ويقودون الناس إلى الضّلال والشرك والمعاصي. ويتّضح من هذه الآية أنّ الله عزّ وجلّ يُحذّر النّاس من التّبعية للشيطان ومن اتّباع أعماله الشريرة، ويحذّرهم من أنّهم إذا تبعوا الشيطان فأنّهم سينتهي بهم المطاف في جهنّم، وهي العذاب الأكبر والأبديّ الذي لا ينتهي (٦٥).

وذكر الله تعالى من تبع إبليس، ممَّن أهلكهم الله سبحانه من أهل القرى؛ إذ قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[٦٦] وتقدّمها عتاب ربّنا لأهل الأرض لقلّة شكرهم، فقال:﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾[٦٧]؛ فكانه صدق إبليس عليهم ظنَّه، فاتّبعوه. فضلًا عن أنّ إبليس ذكر أنّه سيلجأ إلى الحيل، ليغري ذرّيَّة آدم على نبيّنا وآله وعليه السلام فيتّبعوه أكثر، وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[٦٨]؛ وقد جاء ردّ الله تعالى على طغيان إبليس، فقال: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَولادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشيطان إِلاَّ غُرُورًا﴾[٦٩] قوله تعالى: **(واستفزز)** أي استزلّ واستخفّ وأصله القطع، ومنه تفزّز الثّوب إذا انقطع والمعنى استزلّه بقطعك إيّاه عن الحقّ، واستفزّه الخوف أي استخفّه.

وهكذا، يوضّح الله تعالى للبشر أجمعين طرق إبليس في الغواية؛ ليأخذوا حذرهم، هذا ومن جانب ثانٍ؛ ليكشف في وجه إبليس كلَّ سبيل خفيّ نوى أن يسلكه خفية ليضلّل بني آدم، فكشف الله سرّه وهتك ستره، وفضح خباياه ونواياه، هذا ومن جانب ثالث؛ ليحقر أفعاله ويصغرها مهما علا شأنها في نظره، فكلّ شراكه ومصائده هي عند الله تعالى لا تساوي شيئًا، وكانه يقول له: غايتك

في الإغواء فعل كذا وكذا، فافعل لا يضيرنا شيء من تدابيرك أي ليس لك من السّلطان عليهم ولو بأقلّ مقدار، فافعل ما يحلو لك لن تحقق كلّ أمانيك فيهم.

إلى أن يأتي قول الله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾[٧٠]، ومعناه أنّ الشيطان وإن كان قادرًا فالله أقدر منه وأرحم بعباده من الكلّ، فهو تعالى يدفع عنه كيد الشيطان ويعصمه من إضلاله وإغوائه، وفيها دلالة على أنّ المعصوم من عصمه الله تعالى، وأنّ الانسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الضّلال، لينقل السياق من مخاطبة الشيطان إلى مخاطبة الرسول ﷺ وفيه من المؤانسة قدر كبير؛ إذ بعد أنّ بيّن طرائق إبليس في الإغواء، ووضّح كراهيّته للبشر وتربصّه بهم بشتّى السبل طمأنهم بأنّه وراؤهم متكفلًا برعايتهم، ومثبّتًا لهم على الحقّ، وحافظًا لمن اعتصم بحبل الله، وتائبًا على من أناب»[٧١] وهكذا، يتبيّن إلينا الآتي:

أوّلًا: (وقعد مستفزًا) أي غير مطمئنٍ. « واستفزز» أمر تعجيز، أي أنت لا تقدر على إضلال أحد، وليس لك على أحد سلطان فافعل ما شئت.

ثانيًا: قوله تعالى: **(بصوتك)** وصوته كلّ داعٍ يدعو إلى معصية الله تعالى، «عن ابن عبّاس ومجاهد: الغناء والمزامير واللهو. الضحّاك: صوت المزمار. وكان آدم عليه السلام أسكن أولادها أعلى الجبل، وولد قابيل أسفله، وفيهم بنات حسان، فزمّر اللّعين فلم يتمالكوا أنّ انحدروا فزنوا ذكره الغزنويّ. وقيل: « بصوتك « بوسوستك»[٧٢]

ثالثًا: قوله تعالى: (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) أصل الأجلاب، السّوق بجلبة من السائق، «يقال: أجلب إجلابًا، والجلب والجلبة: الأصوات، تقول منه: جلبوا بالتشديد، وجلب الشيء يجلبه ويجلبه جلبًا وجلبًا. وجلبت الشيء إلى نفسي واجتلبته بمعنى، وأجلب على العدوّ إجلابًا، أي جمع عليهم. فالمعنى أجمع عليهم كلّ ما تقدر عليه من مكايدك»[٧٣].

الخاتمة:

توصّلت الدراسة إلى نتائج عدّة، نذكر منها:

١. يتبيّن أنّ القول في القرآن الكريم يتجلّى في حالات متنوّعة، بين الظّهور والخفاء، بحسب السياق والغرض والمقام القرآنيّ.

٢. اختلف المفسّرون في تفسير آيات القول، ما أدّى إلى اختلاف دلالاتها؛ إذ يستند المفسّرون على استنباط هذه الدلالات وتحليلها بناءً على السياق والقواعد اللغويّة والمعرفيّة المتاحة.

٣. خاطبت الملائكة الله تعالى، في غير آية قرآنيّة، وقد تعدّدت دلالات الأقوال بحسب السياق، وقد كشفت عن طاعتهم المطلقة في التسبيح والتمجيد لله تعالى والاعتراف بعظمة الله تعالى وقدرته.

٤. تحمل آيات قول الله تعالى إلى الملائكة، عظمة خلق الانسان وتفضيله على كثيرٍ من المخلوقات، وهذا ما يكشف قيمة الانسان وأهميته، وتحثّ على التفكير في الغاية العظيمة التي خلق الانسان لأجلها، التي تتمثّل في عبادة الله تعالى وإقامة العدل في الأرض.

الهوامش:

١- لسان العرب، لابن منظور، الناشر: دار إحياء التراث العربي، مؤسّسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، الطبعة: الثانية - ١٤١٨ هـ -١٩٩٧ م: مادة قول. ١١/ ٥٧٢.

٢- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز آبادي، تحقيق: محمد علي النجار الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة: ٤/ ٣٠٣.

٣- لسان العرب، لابن منظور: ١٢/ ٥٢٣.

٤- الخصائص، لابن جني: ١/ ١٨.

٥- يُنظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك لابن عقيل، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة: العشرون ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م: ١/ ١٣.

٦- ينظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ١/ ١، والجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبيّ): ٢/ ٢٩٨، والواضح في علوم القرآن، لمصطفى البغا ومحيى الدين مستو: ١٥، والمحرر في علوم القرآن، لمساعد الطيار: ٢٢.

٧- الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري:٤/ ١٦١١(ملك)، لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور: ١٠/ ٤٩٦ (ملك)، تاج العروس، محمد بن محمد الحسيني: ٢٧/ ٣٥٤ (م ل ك).

٨- سورة التحريم: آية ٦.

٩- لوامع الأنوار البهيّة: ١/ ٤٤٧.

١٠- فتح الباري: ٦/ ٤٥٠، روح المعاني، الألوسّي: ١/ ٢١٨.

١١- سورة البقرة: آية ٣٠.

١٢- يُنظر: الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائيّ: ١/ ٦٤.

١٣- سورة البقرة: آية ٣٠.

١٤- سورة الأعراف: آية ١١.

١٥- ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبريّ: ١٠/ ٥٣٣.

١٦- سورة الحجر: آية ٢٨.

١٧- الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائيّ: ١٢/ ١٥١.

١٨- سورة ص: آية ٧١.

١٩- التبيان، الشيخ الطوسّي: ٨/ ٥٨٠.

٢٠- سورة البقرة: آية ٣٠.
٢١- يُنظر: تفسير الطبريّ الجامع لكلام القرآن الكريم: ٢/ ٢٠٧ و ٢٠٨.
٢٢- ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ: ١/ ٣٥. وينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ١/ ٣٨.
٢٣- سورة الأعراف: آية ١١-١٢.
٢٤- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ١/ ١٠٥.
٢٥- التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١/ ٤٠٩.
٢٦- سورة الحجر: آية ٣٠.
٢٧- ينظر: الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائيّ: ١٧/ ٢٢٥.
٢٨- تفسير الكشاف، الزمخشريّ: ٩٣١.
٢٩- ينظر: بحار الأنوار، العلامة المجلسّي: ٢/ ٩٦.
٣٠- يُنظر: الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائيّ: ٣/ ٢٠٣.
٣١- سورة البقرة: آية ٣٤.
٣٢- ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبريّ: ١/ ٥١١.. ٥٢٠.
٣٣- سورة الحجر: آية ٣٢.
٣٤- تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسّي: ٦/ ١١٥.
٣٥- سورة ص: آية ٧٥.
٣٦- تفسير الكشاف: ٢/ ٣٨١.
٣٧- سورة الأعراف: آية ١٢.
٣٨- ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن، الطبريّ: ٦/ ١٠٣.
٣٩- ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ: ٢/ ١٦٥.
٤٠- سورة الإسراء: آية ٦١.
٤١- الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائيّ: ١٣/ ١٤٤.
٤٢- يُنظر: تفسير الطبريّ، جامع البيان في تأويل القرآن: ٢/ ٢٤٥.
٤٣-سورة الأعراف: آية ١٣.
٤٤- الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائيّ: ٨/ ٣٠.
٤٥- سورة الحجر: آية ٣٤.
٤٦- فتح القدير، الشوكاني: ٣/ ١٣١.

٤٧- ينظر: الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائيّ: ٨/ ٣٠.
٤٨- سورة الأعراف: آية ١٤.
٤٩- يُنظر: تفسير الطبريّ: ١٢/ ٣٥٠.
٥٠- جامع البيان، ابن جرير الطبريّ: ٨/ ١٧٥.
٥١- فتح القدير: الشوكانّي، ٤/ ٤٤٦.
٥٢- تفسير الكشاف: ٩٣٢.
٥٣- الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبيّ: ١٠/ ٢٧.
٥٤- تفسير الطبريّ: ٨/ ١٣٢.
٥٥- ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازيّ: ٩/ ٤٩.
٥٦- سورة الإسراء: آية ٦٣.
٥٧- يُنظر: تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسّي، ٤/ ٢٣١.
٥٨- تفسير الكشاف، الزمخشريّ: ٢/ ٧٠.
٥٩- سورة الحجر، آية ٤١.
٦٠- بحار الأنوار، العلامة المجلسّي: ٣٥/ ٥٩.
٦١- سورة الحجر: آية ٤٢.
٦٢- الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائيّ: ١٢/ ١٦٧.
٦٣- ينظر: الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائيّ: ٣/ ٣٩٥.
٦٤- سورة ص: الآيتان ٨٤ و٨٥.
٦٥- ينظر: الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائيّ: ١٧/ ٢٢٧.
٦٦- سورة الأعراف: الآيتان ٤-٥.
٦٧- سورة الأعراف: آية ١٠.
٦٨- سورة الأعراف: الآيات: ١٦ و١٧ و١٨.
٦٩- سورة الإسراء: آية ٦٤.
٧٠- سورة الإسراء، آية ٦٥.
٧١- بحار الأنوار، العلامة المجلسّي: ٦/ ١٧٨.
٧٢- الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبيّ، القرطبيّ: ١٠/ ٢٨٨.
٧٣- تفسير القرطبيّ، القرطبيّ: ١٠/ ٢٨٨. ج ١٠

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

١. مكارم الشيرازيّ، ناصر،الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، ط١، ١٤٢٦ه.

٢. المجلسيّ، بحار الأنوار: الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار (عليهم السلام)، محمّد الباقر (ت١١١١ه)، مؤسّسة الوفاء، بيروت – لبنان، ١٤١٤ه.

١. الفيروزآبادي، أبو طاهر مجد الدين محمّد بن يعقوب بن محمّد بن إبراهيم الشيرازيّ (ت ٨١٧ه)،بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمّد عليّ النجّار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلاميّة –لجنة إحياء التراث الإسلاميّ، القاهرة، ١٣٨٣ه.

٣. المرتضى الزبيديّ، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق،تاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر للطباعة والتوزيع، ١٩٩٤م.

٤. أبو جعفر محمّد بن الحسن (ت ٤٦٠ه)،التبيان في تفسير القرآن، الطوسيّ، تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط١، ١٤٠٩ه.

٥. ابن عاشور، محمّد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ٢٠٠٨م.

٦. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل عمر بن كثير بن درع القرشيّ الدمشقيّ،تفسير القرآن العظيم، المعروف بتفسير ابن كثير، (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمّد السلامة، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٩هـ.

٧. أبو جعفر الطبريّ، محمّد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب (ت٣١٠ه)،جامع البيان في تفسير القرآن، المعروف بتفسير الطبريّ، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠ه- ٢٠٠٠م.

٨. القرطبيّ، أبو عبدالله محمّد بن أحمد (ت ٦٧١ه)،الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن التركي، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٧ه- ٢٠٠٦م.

٢. ابن جنّيّ، أبو الفتح عثمأنّ (ت:٣٩٢هـ)،الخصائص، تحقيق: عبد الحميد هنداويّ، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ط٤، ١٤٣٤ه-٢٠١٣م.

٣. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك لابن عقيل، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة: العشرون ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

٩. محمّد بن عليّ بن محمّد عبد الله،فتح القدير (تفسير الشوكاني)، الشوكاني، الناشر: المعرفة، د.ط، د.ت.

١٠. جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمّد بن أحمد الخوارزميّ الزمخشريّ (ت:٥٣٨هـ)،الكشّاف، الناشر: دار المعرفة، ط٣، ١٤٣٠هـ.

١١. ابن منظور، محمّد بن مكرم بن عليّ جمال الدين الأنصاريّ الرويفعيّ الأفريقيّ(ت ٧١١ه)، لسان العرب، الناشر: دار إحياء التراث العربيّ، مؤسّسة التاريخ

العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٨ هـ -١٩٩٧م.

١٢. البصريّ، أبو عبيدي معمر بن المثنّى (ت٢٠٩ه)، مجاز القرآن، تحقيق: محمّد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ١٣٨١ه.

١٣. الطبرسيّ، أبو عليّ الفضل بن الحسن الطبرسيّ (ت:٥٤٨هـ)،مجمع البيان في تفسير القرآن، دار العلوم، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ.

١٤. مساعد بن سليمأنّ بن ناصر، المحرّر في علوم القرآن، الطيّار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنيّة في معهد الإمام الشاطبيّ، ط٢، ٢٠٠٨م.

١٥. الرازيّ، زين الدين أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفيّ (ت٦٦٦ هـ)،مختار الصحاح، الناشر: المكتبة العصريّة، بيروت، ط٥، ١٤٢٠ه-١٩٩٩م.

١٦. الطباطبائيّ، محمّد حسين (ت ١٤٠٢ه)، الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائيّ، محمّد حسين (ت ١٤٠٢ه)، منشورات مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢٧ه.

١٧. البغا، مصطفى ديب، ومحيّ الدين مستو،الواضح في علوم القرآن، دار الكلم الطيب، ط٢، ١٤١٨ه-١٩٩٨م.